

وفي هذه الحالة نرى أن القاعدة هي أنه كلما عظم الإلهام تطلب قوة فنية أعظم ، لكي تعبر عنه ، لأن التجربة إذا كبرت وسمت ، لا بد لها من مقدرة على « التعبير » أسمى وأكبر ، لكي تحيلها إلى عمل أدبي يمثلها تمثيلاً صادقاً . ومن الواضح أن المؤلفين أمثال هوميروس ودانتى وشكسبير. وملتن لم يستطيعوا أن ينقلوا إلينا أعظم التجارب وأسمائها إلا لأنهم رزقوا أكبر مقدرة على التعبير اللغوي ، وكان لهم بالطبع إلهام عظيم ، غير أننا ما كنا ندرك هذا لو لم يكن كلامهم يضارع إلهامهم عظمة ، وكلما كانت مادة تجاربهم أغنى وأغزر ، كانت مادة شعرهم أوفى وأبهر .

★ ★ ★

وقد كان الجاحظ زعيم مدرسة نقدية في تاريخ النقد العربي ، وهي مدرسة تنتصر للصياغة والأسلوب ، وتقدر الأدباء بمدى قدرتهم على تصوير المعاني وتحليلها ، والإبداع في أدائها ، وترى أن ذلك الإبداع في تأليف العبارة خصوصية الفن الأدبي التي تميزه من تعبير عامة أصحاب اللغة ، وهو أيضاً مظهر مهارة الأديب وعلامة فنيته ، وفيه أيضاً يتفاضل الأدباء فيما بينهم ، كما يفضل الأدباء بعامة غيرهم من طبقات المجتمع اللغوي .. وبذلك الانتصار للصياغة والأسلوب كان الجاحظ رئيساً لمدرسة ترى أن جودة الأدب إنما تتوافر بمقدار قدرة الأديب على التصنيع ، الذي يعده الجاحظ ضرورة فنية يتميز بها الأدب من سواه من ضروب التعبير الأخر . فقد دافع الجاحظ عن الصنعة دفاعاً حاراً ، ورأى أن النظرة إلى الأديب ينبغي أن تكون بمقدار ماحوى عمله الأدبي من آثار الصنعة التي تبدو في تخير الألفاظ والتأنق في صياغتها وتأليفها ، وفي جودة التشبيه وحسن الاستعارة ، وابتكار الصورة التي يتميز صاحبها على غيره من الأدباء بمقدار ماتأنق فيها ، وبمقدار ماغالى في إبراز الفكرة في صورة جديدة غير مألوقة . وهو يبنى رأيه في تصنيع الأدب على أن للصنعة أثرها البعيد في خلود الأدب ، وفي سهولة حفظه ، وجريانه على ألسنة الناس والرواة جيلاً بعد جيل ، ولولا هذه الصنعة لاندثر كما يندثر سائر الكلام الذي خلا من التصنيع ، ولم يحفظ ويؤثر إلا ما كساه التصنيع . ويروى الجاحظ مصداق ذلك أنه قيل لبعض المتكلمين : لم تؤثر السجع على المنثور ، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامي لو كنت لا أومل فيه . إلا سماع الشاهد لقل خلاقي ، ولكنني أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت . وما تكلمت به العرب من جيد المنثور